دور الإعلام في الفتنة المذهبية

{ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم}(قرآن كريم)

د. محسن صالح

توطئة:

بلغ التطور الإعلامي ذروته حيث أصبح العقل التاسع (بحسب أرسطو) يرى حركة الفضاء، ومنها يشاهد ما يحدث في العقل العاشر (الأرض) ومن عليها من الناس والأشياء. يصور ما يريد إظهاره، ويقدم الخبر الذي علمَهُ وما على قاطني الكوكب العاشر إلا أن يلتقطوا ما يرسله الأعلى إلى الأدنى(!؟). إن جميع وسائل الاتصال التي أبدعها العقل الإنساني حولت هذا العالم إلى "قرية كونية". أصبح من السهل الوصول إلى أي معلومة بكبسة زر وردة طرف. مع ذلك، وعلى تعددها وانتشارها، بقيت وسائل الإعلام – مرئية ومكتوبة ومسموعة – محتكرة بأيدي القوى المهيمنة والمسيطرة على العالم، التي تعتبر نفسها الأكثر رقيا وتطورا وهي بالتالي ملزمة بنشر التنوير بين الأمم التي تعيش في ظلمات التخلف(!). فالذي يصنع الشيء يحتكر أسراره ومآلاته وطرق استعماله. والإعلام، وإن كان قد بدأ كفكرة للترويج للبضائع المنتجة في العالم الرأسمالي الشره، فقد تحول إلى فكرة لتسويق الثقافة، العقائد والأفكار والخطط السياسية للأقوى. فمن غوبلز النازي الألماني إلى تيد ترنر (صاحب شركة CNN) اليهودي الأمريكي، أثبت الإعلام عن قوته في تحريك العقول والتلاعب بها، وفي إعمال التغيير عبر خلق الفوضى الهدامة وإعادة التركيب للجغرافيا السياسية والديموغرافيا العالمية وخاصة في المناطق الضعيفة.

الآن، إن أحد أهم مقومات العولمة، أو أحادية القطب العالمي، يستند إلى قوة المعرفة بالآخر، وذلك من خلال جمع المعلومات وتصنيفها ونشرها، بعد صياغتها وتقديمها من قبل الناشر. والناشر هو الذي يصنع الصورة والكلمة الفاعلة ويستهدف من يريد تغييره، ويرسل إليه الإشارات المناسبة لكيفيات السلوك الذاتي والاجتماعي والسياسي. هو الذي يجعل من المجاهدين في أفغانستان ضد الإتحاد السوفياتي أبطالاً في لحظة سياسية مناسبة له؛ وهو الذي يقدمهم

كإرهابيين عندما يحاربون أرباب العولمة، خاصة من الأمريكيين. نفس الآلة الإعلامية هذه، صنعت من صدام حسين بطلاً قومياً عندما شكل أداة لمحاربة جمهورية إيران الإسلامية، حولته إلى شيطان يجب التخلص منه عندما اقتضت مصلحة المحافظين الجدد، حماة قِيَم الرأسمالية الأخطبوطية، وبإدارة بوش الابن الرأسمالي الصغير. إضافة إلى نماذج سيئة شكلت أدوات لبيع الكلمات، كسلمان رشدي الذي دفعت له المخابرات البريطانية مئات ألوف الجنيهات الإسترلينية ليؤلف كتابه "آيات شيطانية،" على ما يذكر الدكتور علي مزروعي الأمريكي من أصل أفريقي. يمكن العودة إلى آلاف الأمثلة التي حاول الغرب وأنساله الثقافية تشويه عقائد وثقافات الشعوب الأخرى، وخاصة الإسلام.

دور الإعلام: إعداد مسرح الفتنة

وهكذا يظهّر الإعلام، بأدواته كافة، الفكرة، الكلمة والصورة، بحسب ما تمليه اللحظة السياسية المناسبة لصاحب الوسيلة الإعلامية بمعزل عن قيم الحق والعدالة والإنسانية.

وقد سطر الغرب، سلطات سياسية وأنسال ثقافية، نظريات متراكمة في علم الإعلام وتطبيقاته، وخاصة حول البلدان التي كان يستعمرها أو التي يشتهي الهيمنة عليها. إن أولى المناطق والشعوب التي سعى إلى فهمها والتوصل إلى تحطيم صورتها، خاصة الثقافية، هي البلدان المتنازع عليها وخاصة الإسلامية. نعثر على ذلك في الكتابات التي صدرت عن المستشرقين الغربيين، من إفرنس وإنكليز وألمان وهولندا وغيرهم. أحد المستشرقين الإنكليز المعروفين ويدعى بلاك ماكدونالد، وضع كتابا عن الإسلام في بدايات القرن العشرين يقول فيه بصراحة متناهية أنه يجب الكف عن مهاجمة الإسلام بشكل صريح ولندع الكلمات المتضمنة عناصر الشك في المعتقدات والثقافة الإسلامية تأخذ طريقها إلى عقول المسلمين. هذا هو الأسلوب الثقافي الاستعماري الذي شق طريقه إلى عقول وطرائق تفكير النخب الفكرية التي كان لها أفظع التأثير على الأجيال المتعاقبة في بلاد الإسلام، وخاصة العربية منها.

ليس بالإمكان غض الطرف عن المسؤولية التي كان يجب أن تتنكبها المؤسسات الدينية والحكومية التي كانت تمارس سلطاتها باسم ثقافة وعقائد ومصالح الشعوب الإسلامية. وهي إذ

انكفأت عن القيام بواجبها، سمحت لفوضى الأفكار والثقافات والسياسات أن تجتاح المنطقة من مشرقها إلى مغربها، سوى بعض الأصوات والكتابات لمصلحين أرادوا الدفاع عن العقيدة والأمة فتركوا آراء ركزت على وحدة بلاد المسلمين وارتباط مصائرها وحذروا من الفتنة والتهديدات التي تحيط بها. تشرذمت الأمة ونأت بنفسها عن نفسها، فوقعت فريسة الشرك الذي نصب، فتجسد العدو صديقا والأخ عدوا ووضعت الحدود وتعددت الحاميات وسلبت الأوطان. من طنجا إلى جاكرتا إلى بغداد ...، افتتنت البلدان بذاتها وابتعدت عن الحقيقة وانقسمت شر انقسام ووضع الاستعمار السدود الثقافية وغذاها يوميا بإعلامه ولغاته ومناهجه الدراسية والتربوية.

والإعلام بمختلف صوره يُستعمل من أجل التأثير في عقل الأفراد للوصول إلى تشكيل رأي عام عن الجماعة ذاتها، أو عن جماعة أخرى في داخل المحيط، أو عن جماعات أخرى في مجتمعات بعيدة. والإعلام هو إظهار الخبر وإيصاله إلى الآخر من أجل زيادة في المعرفة، تشكيل رأي أو حكم عل حدث أو معتقد أو سلوك، يراد منه التأثير وردة فعل. والتقدم الهائل في وسائل الاتصال الحديث والاعتماد عليه في شؤون التجارة أو الصناعة أو العلوم أو التربية جعل منه أكثر الحقول مضاهاة من حيث الوظيفة والبنية والدور. ففي الولايات المتحدة يعمل أكثر من نصف السكان القادرين على العمل في قطاع الإعلام والاتصال. وفي ألمانيا يعمل في هذا القطاع حوالي 35 بالمئة. (رفيق سكري، دراسة في الرأي العام والإعلام والدعاية، جروس برس، 1991، ص 6)

وهكذا استطاع الإنسان من خلال التقدم المذهل في وسائل الاتصال من تجاوز كافة الحدود الزمنية والمكانية وأطل على كافة المجتمعات البشرية من خلال وسائل الإنترنت الحديثة الذي أضحى يشكل حجر الزاوية في كل حركة علمية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية. وربما أصبح الإنسان الحديث عرضة لفقدان الكثير من المهارات العقلية وحتى الحسية لأنه يعتمد بصورة رئيسية في تحصيل معلوماته على آلة تُضخ فيها المعلومات من مصدر معين إلى كل أنحاء العالم. ذلك بهدف واحد هو تشكيل عقل ونفس عولمية ليس لديها مرجعية سوى الرأسمالية الحديثة بمعزل عن أي ثقافة قيمية اجتماعية ذاتية.

عادة ما تكون هذه الدعاية مرتبطة بشبكة إعلامية خالية من القيم الأساسية للجنس البشري والتي تشكلت على أساسها الجماعات، بهدف إحلال ثقافة تقوم على قيم مادية عابرة، أو قيم

شعب آخر، والقصد منه غلبة الطرف المهيمن على وسائل الإعلام على بقية الجماعات والشعوب. تاريخياً شكل الإعلام الوسيلة الأمضى في التأثير على الآخر في المعارك، أو التنافس بين الجماعات وحتى بين الأفراد، لما له من قوة حضور وانعكاس على شخصية ومكانة المجتمعات أو الأفراد في محيطها ونظرتها إلى ذاتها. والإعلام بمختلف آلاته، وخاصة الكلمة التى كما يقال أمضى من السيف، شكل ما يوازي الحرب الاستباقية في الحروب الأميركية الراهنة.

الاستعمار والتفرقة: إشاعات لبث الفرقة

يقول إدموند تايلور في كتابه "أغنى بآسيا": "في الأيام الأولى لشركة الهند الشرقية (التي أوكل إليها استعمار الهند بداية) أرغم الإنكليز على أن يستخدموا، بدرجة كبيرة، ما يعرف اليوم بـ "الحرب النفسية السوداء" وذلك باستخدامهم "الطابور الخامس" واستخدام أساليب فجة من الدعاية السرية مما مهد الطريق لجنود الشركة (تذكر بلاك ووتر اليوم في العراق) وللكويزلنجيين الوطنيين الذين عينوا حكاماً ليخففوا العبء عن إداريي الشركة في الأماكن المحتلة". من هم بعض الحكام في المناطق التي يحتلها ويحكمها الإنكليز والأميركيون؟ ما هي صفتهم التمثيلية؟ ألم يعترف الأميركي أن حميد كرزاي زوّر الانتخابات؟ ربما يشكل هؤلاء الطابور الخامس وينسجون مع أسيادهم عناصر الفتن بين الشعوب في المنطقة. يتابع تايلور القول: "عمد الإنكليز إلى المناورة لإبقاء القوى السياسية المضادة لهم ضعيفة ومنقسمة. وبواسطة الدعاية نجحوا في أن يملأوا عقول الهنود بخرافات مضللة. فتظن كل مجموعة من المجتمع الهندي أن الجماعة الأخرى تقف ضدها". ما أقرب الأمس الهندي من اليوم وربما غد العربي! أكثر من ذلك، " كانت الحكومة الوطنية (ما يسمى الوطنية) في البلاد (الهند) تستخدم الجواسيس بأعداد كبيرة للتعرف على اتجاهات الرأي العام في هذه البلاد الواسعة لضبط أي تآمر، حتى قيل أن العدد كان يصل في هذا العصر المبكر إلى ثلاثين ألفاً في خدمة راجاه واحد من حكام الأقاليم". (صلاح نصر، الحرب النفسية: معركة الكلمة والمعتقد، دار القاهرة للطباعة والنشر، طبعة ثانية، 1967، ص، 68)

هذا هو النموذج الإنكليزي المستند إلى قاعدة سياسية، صيغتها كلمتان فقط "فرق تسد". لا زلنا نذوق آثار ويلاتها منذ أن سيطر الإنكليز على الصحراء العربية مرورا بمصر والعراق وفلسطين ومراسلات حسين- مكماهون، وجريمة "وعد بلفور" وذروته "سايكس – بيكو" والانتداب على فلسطين وتسليمها للغزاة الصهاينة.

النموذج الإعلامي الأمريكي و"الفوضى البناءة"

لقد شكل الإعلام الغربي والأمريكي تحديداً، منذ قيام الثورة الإسلامية في إيران، عاملاً رئيسياً في محاولة زعزعة القيم التي أدت إلى قيام هذه الثورة ووضع الحواجز وإقامة الدعايات المسيئة والشائعات المغرضة للنيل من شعبية وإسلامية الثورة والتشكيك بنوايا قيادتها. ولم يخلُ هذا الإعلام من الدسائس أكان على الصعيد الشعبي الإيراني المحلي، أو على صعيد إثارة النعرات القومية بين العرب والإيرانيين خاصة، أو بين الشيعة والسنة، وبين الشيعة أنفسهم (النجف – قم)، والسنُة أنفسهم (الأزهر – الجزيرة العربية وغيرها)، إضافة إلى موضوعات بنيوية إسلامية لها علاقة بفقه المعاملات والعبادات كالنظام السياسي وكيفية استنباط الأحكام والجهاد؛ وقضايا تعاني منها المجتمعات الغربية أرادت أن تسقطها على مجتمعاتنا كقضية المرأة والديمقراطية والحرية. قيم يدعي الغرب أنه يحتكرها وبالتالي يحاول بث الدعايات الكاذبة لمصادرة المفاهيم والأسس التي تقوم عليها الثقافات الأخرى. والإنسان الضعيف المتهور عرضة للاهتزازات، خاصة وأن النفس الإنسانية قابلة للتساؤل عن بعد وللتعجب من المبالغات، ولديه قابلية الحكم على الآخر، وخاصة عندما يسمع إشاعات، عادة ما تكون مفبركة، القصد منها تهييج النفوس من أجل أخذ موقف محدد من قضايا خلافية. (والدعاية ويقصد بها الإثارة النفسية بغرض الوصول إلى تلاعب معين في المنطق. والاستجابة هنا تحدث عند إثارة هذه العاطفة. فالدعاية عادة ما تتوجه إلى غير الصديق من خلال آلة أو خبر يصنعها الصديق). وهكذا فإن الدعاية الغربية، وبعض العربية المتحالفة معها سياسياً، بذلت جهوداً واعية لنشر العديد من الأفكار والآراء حول الحكم الإسلامي في إيران وحركات المقاومة في لبنان وفلسطين، بقصد إبعاد المسلمين عن المشاركة الفاعلة في عملية التغيير السياسي والثقافي التي تقوم بها الأطراف المقاومة.

وإذا عدنا قليلاً إلى التراكم الدعائي حول المسألة القومية والمذهبية خلال الحرب المفروضة بين العراق وإيران، فإننا نعثر على الكثير من الصور والآراء وتجييش العواطف واللعب على إثارة النعرات من أجل تشويه المنطق الاجتماعي والسياسي والديني في علاقة المسلمين فيما بينهم. إن الأفلام التي كانت تبث عبر محطات "ABC" الأمريكية مثل "سيف الإسلام" (The Sword of Islam) وأخبار "BBC" و "CNN" تظهر بشكل واضح مدى العمل الدعائي لبث الفرقة بين المسلمين وتشويه الإسلام. فالإعلام الأمريكي دخل بعمق على قضية زرع الفتنة بين المسلمين من خلال إنشاء محطات إعلامية ومجلات بالعربية والفارسية من أجل التحريض المستمر. وترصد الولايات المتحدة الأمريكية مئات الملايين من الدولارات على قنوات مثل "الحرة" التي تبث بالعربية و"فارس" التي تبث بالفارسية. إضافة إلى الأدبيات التي تصدر بالإنكليزية وتهاجم الإسلام بصورة واضحة.

في أمريكا خمس إمبراطوريات إعلامية تتشارك التحريض على الإسلام –على الرغم من المنافسة فيما بينها. أولى هذه الشركات "America Online" وهي أكبر شركات الإنترنت العالمية وشركة "Walt Disney" التي تعنى بالأفلام الثقافية وغيرها، و " Paramount Pictures" التي تعنى بالأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية، إضافة إلى شركة فوكس التي يشرف وينفذ ويمتلك معظم أسهمها مجموعة من اليهود الذين يصيغون المفردات والدعايات والأفلام النفسية التي تؤثر في الحس والتجربة والانفعال لمئات الملايين من الناس في داخل الولايات المتحدة وأوروبا وبلاد المشرق.

إن اجتماع هذه الوسائل الإعلامية، مع القدرة على النشر والكتابة، وتقنيات التنصت والمراقبة، وتطور وسائل الاتصال الجوية والأسلحة الفتاكة الأرضية، إضافة إلى الشعور بفائض القوة والاستكبار الذي تمتلكه الولايات المتحدة الأمريكية وتوابعها من الدول الغربية، خاصة بعد سقوط الإتحاد السوفياتي، أدى إلى هذا الهجوم الوحشي العنيف على المناطق الإسلامية وشعوبها التي تتمتع "سلطاتها" بفائض من الضعف والهوان النادرين. تارة تحت مسمى "الحرب على الإرهاب"، وتارة أخرى للحفاظ على الأصدقاء والحلفاء، الكيان الصهيوني ومصادر الطاقة وغير ذلك. تقول نانسي سنو أن كتابها "حرب المعلومات": "يطرق مواضيع تتعلق بالدعاية التي بدأت تسود في الولايات المتحدة والعالم الذي بدأ يتشكل فيه وضع جديد قبيل غزو أفغانستان ... الوضع الذي

تحول فيه دونالد رامسفيلد وزير الدفاع إلى أكبر مروج دعايات للمتشددين في إدارة بوش الابن." وسنو هذه هي خبيرة إعلامية، وكانت قريبة من القرار السياسي الأمريكي في تلك الحقبة الخطيرة. تقول سنو أنها أرادت أن تلقي الضوء على المناطق المعتمة وتلك المسكوت عنها في العلاقة الخفية التي تربط القلعة الإعلامية في البيت الأبيض والبنتاغون ووكالة المخابرات المركزية (سي. آي. أي). في هذه الفترة أنشئ في وزارة الخارجية مكتب خاص للترويج الدعائي في وزارة الخارجية الأمريكية سميّ "مكتب التأثير الاستراتيجي". هذا المكتب يؤازره مكتب الاتصالات العالمية الذي تأسس في تموز سنة 2001، ومهمته تتكامل مع الأدوار الدبلوماسية والإعلامية لبث المعلومات والترويج للإشاعات التي يراد منها تسهيل الغزو الأمريكي كما حصل بعد 11 أيلول (محمود حيدر، في الذات والآخر في الإعلام المعاصر، مركز الإمام موسى الصدر، بيروت 2003، ص، 230–231) وإشاعة امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل التي ثبت عدم صحة وجودها أثناء الغزو الأمريكي وبعده. كما تسوق الدعاية الأمريكية اليوم وتحرض على الملف النووي الإيراني، وتدعي أن إيران تسعى لصنع قنبلة نووية. وفي لحظة بعد الغزو الأمريكي بدأ الإعلام الغربي وبعض العربي يروجان لمسألة امتلاك سوريا لأسلحة الدمار الشامل، من أجل الانقضاض عليها وتطويقها سياسياً واقتصادياً وفرض عقوبات لا تزال مفاعيلها سارية حتى اليوم. وهكذا يروج الإعلام الأمريكي السياسي والثقافي للهدف المراد ضربه أو تطويقه أما لترضيخه وإضعافه لتغيير سلوكه السياسي تجاه السياسات الأمريكية أو ضربه والتخلص منه والمجيء تابع أمريكيا ومتصالح "إسرائيليا."

وقد شرعت الولايات المتحدة الأمريكية باستدعاء أو إقامة صلات ودورات وندوات لبعض الإعلاميين من العرب والمسلمين، وخاصة من اللبنانيين والكويتيين. ذلك من أجل أخذ رأيهم أو إعطائهم توجيهات بكيفيات نقل الخبر، أو ابتداعه، أو فبركة إشاعات من أجل التأثير السلبي على عقول العرب والمسلمين فيما يتعلق بقضايا كبرى كالعلاقة بين المسلمين وأنظمتهم، والعلاقة بين المذاهب والشعوب الإسلامية وداخل كل فئة منهم. وذلك للتحريض وجعل الخلافات الداخلية تستعر وتأتي على العقول والقلوب حيث يتجسد العدو في الأخ والصديق بدلاً من العدو الحقيقي المستعمر والمهيمن والغازي والمحتل.

لقد كلفت الحكومة الأمريكية واحدة من أهم مؤسسات البحث الإستراتيجية، وهي مؤسسة "راند" للأبحاث، والتي أنشأت بالأصل كمركز للبحوث الإستراتيجية بسلاح الجو الأمريكي. تشكلت المجموعة البحثية هذه برئاسة الباحثة د. شيريل بينارد خريجة الجامعة الأمريكية في بيروت وعلى معرفة جيدة باللغة العربية، وهي أيضاً زوجة زلماي خليل زاد أحد أركان المحافظين الجدد من أصل أفغاني. عمل سفيراً أمريكياً في الأمم المتحدة وكان أول مبعوث أمريكي لأفغانستان بعد غزوها، وهو صهيوني النزعة. بينارد، إحدى أهم الباحثين في هذه المؤسسة قامت بدراسة – عُدت تقريراً استراتيجياً – عن الإسلام وتقسيمه إلى تيارات أساسية تشكل عوامل قوة وثقل سياسي واجتماعي والتي تتميز بأتباع كثر. هذه الخارطة كانت الأساس الذي استندت إليه الإدارة الأمريكية بتوجهاتها اللاحقة في التعامل مع المجموعات الإسلامية وبناء إستراتيجية إعلامية ودعماً مالياً وتحريضاً فئويا فتنوياً موجهاً. توصل هذا التقرير الذي هو بعنوان "الإسلام المدني الديمقراطي: الشركاء، الموارد والإستراتيجيات" إلى تقسيم المجموعات الإسلامية إلى أربعة تيارات أساسية: العلمانيون، الأصوليون، التقليديون والحداثيون.

يقوم التقرير على مقدمة أساسية وهي: "العثور على شركاء من أجل تطوير وتنمية الإسلام الديمقراطي"، بما ينسجم مع الإستراتيجية الأمريكية لمنطقة الشرق الأوسط الجديد، كبيراً كان أو صغيراً أو متوسطاً. يشكل الكيان الصهيوني الغاصب لب هذا الشرق الجديد. بمعنى أن هذه الأرض الجديدة تشرق عليها الشمس الأمريكية ويكون قمرها ولاية أمريكية وقاعدة عسكرية مشتركة "الكيان الصهيوني". يتضح هذا من خلال النص التالي: "من الواضح أن الولايات المتحدة والعالم الصناعي الحديث والمجتمع الدولي ككل تفضل عالماً إسلامياً يتفق في توجهاته مع النظام العالمي، بأن يكون ديمقراطياً وفاعلاً اقتصادياً ومستقراً سياسياً، تقدمياً اجتماعياً ويراعي ويطبق قواعد السلوك الدولي، وهم أيضاً يسعون إلى تلافي صراع الحضارات بكل تنويعاته الممكنة والتحرر من عوامل عدم الاستقرار الداخلية التي تدور في جنبات المجتمعات الغربية ذاتها بين الأقليات الإسلامية والسكان الأصليين في الغرب. وذلك تلافياً لتزايد نمو التيارات المتشددة عبر العالم الإسلامي وما تؤدي إليه من عدم استقرار وأفعال إرهابية". (يمكن مراجعة نص التقرير على موقع راند الصادر عام 2004، www.rand.org).

أهمية هذا التقرير فيما يخصنا، هو إدخال قضايا لا تزال خاضعة للنقاش في مجتمعات سلبت إرادتها السياسية، من خلال التدخل الغربي والأمريكي المباشر، إضافة إلى موضوعات لها أبعاد عقائدية محسومة إيجاباً كقضايا حقوق الإنسان وقوانين العقوبات ولباس المرأة. هذا إضافة إلى موضوع في غاية الأهمية والخطورة التاريخية، هو موضوع الأقليات، الذي تريد أمريكا من خلاله إشعال الفتن وإطلاق النار في كل اتجاه وإدخال الكيان الصهيوني إلى ساحته من زاوية أن هذا الكيان يضم أقلية يجب أن تحظى ب"الوجود". والملفت أن بينارد ذاتها تتحدث عن عملية إعادة بناء الدين الإسلامي وتدخل في مناقشة السنة النبوية الشريفة والفتاوى الدينية "المتطرفة في كراهية الآخر والهجوم على الغرب سياسياً وثقافياً". تماماً كما أرادوا أن يتدخلوا – الصهاينة والأمريكيون – لحذف آيات قرآنية تتحدث عن اليهود، ويتهمون هذه الآيات بزرع الكراهية.

هذا التمادي الغربي والأمريكي في إحلال ثقافة غربية مكان الثقافة الأصيلة وتقسيم تياراتها بين عدو وصديق، هو سابقة في التعدي الثقافي والسياسي، خاصة عندما تطلق أحكاماً قيمية وسياسية تحرض على الفتنة الداخلية وتبيح لنفسها الهجوم الخارجي على جماعة أو تيار داخل أمة، وأحياناً عبر قرارات ملزمة من مجلس الأمن الدولي. وهذه التيارات موجودة تاريخياً بفعل حوار ثقافي واجتهاد عقائدي وحراك اجتماعي وتطور دينامي نوعي ذاتي حتى من قبل أن تكتشف الولايات المتحدة. والملفت في هذا المجال أن العديد من المؤتمرات والنشاطات الثقافية والسياسية المدنية قد انطلقت في العالم الإسلامي قبل هذا التقرير وبعده بشكل لم يسبق له مثيل وبعناوين مختلفة حول السنة والشيعة (خاصة بعد احتلال العراق)، والمجتمع المدني والجمعيات النسائية والليبرالية والإشراف على الانتخابات وحقوق المرأة بدعم وتمويل وكالات "تنمية" وتغطية سياسية وإعلامية أمريكية.

ومن المثير للانتباه أن إحدى "الأزمات" الدراسية التي وقعت في مصر أتت عشية تقديم هذا التقرير مع رئيس مركز إبن خلدون في القاهرة د. سعد الدين إبراهيم، الذي أتهم بالحصول على مساعدة أمريكية من أجل تنظيم مؤتمر عقد في القاهرة بعنوان "الإسلام والإصلاح"، ومما خرج فيه هذا المؤتمر الدعوة إلى: "إعادة صياغة نسق معرفي جديد للفكر الإسلامي ومراجعة التراث الإسلامي مراجعة جذرية، والتصدي لأفكار المؤسسات التي تحتكر الحديث باسم الدين، ومواجهة وتفنيد مقولات ورؤى وأفكار التيارات الدينية المتطرفة، وتكثيف الحوار مع القوى المعتدلة

والمستنيرة في المجتمعات الغربية عامة والمجتمع الأمريكي خاصة، وأهمية إدماج الحركات الإسلامية في العملية الديمقراطية، وتمكين الحركات المعتدلة من حق الوجود السياسي إذا قبلت بالديمقراطية كخيار إستراتيجي وأقرت بالمبادئ الأساسية التي تقوم عليها قيم المجتمع المدني والدولة المدنية الحديثة، وضرورة إجراء حوار عام موسع مع تيارات الإسلام السياسي السلمي (خالد أبو الفتوح، الإسلام والليبرالية،http://saaid.net\pfv.php).

إنه لمن دواعي الدهشة ألا نجد فرقاً بين نص "بينارد" وخلاصة مؤتمر الدكتور إبراهيم ودعوته إلى الانحياز نهائياً إلى الجانب الأمريكي الذي يثير الفوضى التي يسميها بناءة من أجل إعادة بناء العالم الإسلامي وفكره وثقافته على أسس أنتجت في مجتمعات أخرى. نسأل د. إبراهيم، وهو عالم إجتماع، ماذا كانت نتيجة دخول حركة حماس في الانتخابات الفلسطينية وفوزها بأكثرية مقاعد المجلس التشريعي سوى المقاطعة الأمريكية وإصرارها على أن هذه الحركة هي "حركة إرهابية"؟. إذن، الدعوة الثقافية السياسية الأمريكية غايتها إيجاد المناخ الملائم لتحديد الانقسامات في العالم الإسلامي وتحريضها على بعضها البعض لنشر الفتن تسهيلاً لسيطرتها على المنطقة، وليس إعادة بناء اجتماعي يقوم على الديمقراطية والرفاه والحرية كما تدعي آلة الدعاية الأمريكية ودراساتها وأبحاثها الإستشراقية ومراكز الدراسات المنضوية تحته تشكل صدى محلي لصوت ينطق بأحرف لاتينية.

تمثلات الفتنة

في تقرير "راند" تأكيد على أهمية الاعتناء الأمريكي بالتعاون مع "المعتدلين" العرب وخاصة من الصحفيين والكتاب والمفكرين. هذا التركيز وجد مفاعيله في التوجهات السياسية الكبرى لاستغلال أي فرصة من أجل تهيئة الأجواء لفتنة داخل العالم الإسلامي، وبخاصة بين قوى المقاومة وقوى ما يسمى "الاعتدال"(أي القوى المتصالحة مع المحتل) وبين المدرستين الأكبر في العالم الإسلامي: السنَّة والشيعة. فقد أثار انتباه الصحافيين تصريحاً للرئيس الفرنسي "ساركوزي،" عند استقباله لنائب الرئيس العراقي "عادل عبد المهدي،" عندما قال أنه يستقبل اليوم نائب رئيس شيعي من العراق. وعندما سأل الصحافيون عن سبب هذا القول اعتذر الناطق بإسم الوزارة الفرنسية أيريك شوفاليه وقال بصوت عال: "في الواقع لا أعرف سبب ذكر المذهب" (جريدة الأخبار اللبنانية، 2009/04/16). هذه لم تكن زلة لسان، فقد كان الرئيس الفرنسي المعروف

بقناعاته المعادية للإسلام والمقاومة، يقصد أن يثير حساسية ما عند بعض العراقيين وليكون منسجما مع التوجهات الإعلامية السائدة في الغرب وأميركا، بحيث لا يشذ عن القاعدة حتى الرؤساء العلمانيون جدا. وللدلالة الأكبر والأشد وضوحا، فقد نقل "سركيس نعوم" الصحافي المعروف في جريدة النهار اللبنانية، في حديث له مع موظف وصفه نعوم بأنه (موظف رفيع سابق، مطلع بدقة على كثير من التحركات السياسية الأمريكية، سواء في عهد الإدارة الحالية أو الإدارات السابقة) بأن مستقبل المنطقة سيشهد فتنة سنية شيعية، وقد عنون الأستاذ نعوم مقاله هذا بالقول "المنطقة مقبلة على حرب سنية شيعية". أتى ذلك رداً على سؤال الصحافي: أين صار الخيار العسكري الأمريكي تجاه إيران؟ أجاب الموظف: "توجيه أميركا ضربة عسكرية إلى إيران سيبقى عملية جراحية إذا نفذت. في اختصار أرى أن المنطقة قد تكون مقبلة على حرب سنية شيعية وخصوصاً إذا نفذت أميركا انسحابها من العراق سنة 2011 أو بعد هذا الانسحاب". واضح من خلال هذا الاقتباس أن هناك سعي أمريكي حثيث في استدعاء الفتنة والعمل على إبرازها. يكفي أن يخرج عنوان في هذا الصدد حتى يثير القلاقل. بينما يكون الحديث عن إيران ينتقل الموظف للحديث عن المشكلة الشيعية السنية في العراق ولبنان واليمن والسعودية والإمارات ...الخ (النهار اللبنانية، الاثنين 14 كانون أول 2009). في مقال آخر في جريدة الحياة اللندنية للكاتب حازم الأمين بعنوان: "المقاومات: لحروب أهلية ... بعد زوال الاحتلال" في هذا المقال وفي الفقرة الأخيرة منه يكتب: " لا شك في أن الانكفاء الأمريكي سيخلف مشهداً مختلفاً في المنطقة، لكنه مشهد غير منسجم على الإطلاق مع ما يشتهيه الخصوم التقليديون للحضور الأمريكي. فهؤلاء أصلاً لم يهيئوا أنفسهم إلا لمهمة واحدة، والحضور الأمريكي أعفاهم من أعباء حروبهم الأهلية الكثيرة التي ستكون مناسبة مستعادة لسقوطهم في فشل سابق على هذا الحضور. فماذا أعدت حماس لما بعد الإنكفاءة الأمريكية؟ وماذا أعد حزب الله؟، ناهيك عن سورية وإيران والقاعدة والبعث؟ إنها الحروب الأهلية، فقط! إنها المضامين الفعلية لكل مقاوماتنا في انتصاراتها وهزائمها، وهي ما أعددناه لمجتمعاتنا بديلاً من الإحتلالات". (الحياة، 13 كانون أول 2009) وكأن السيد الأمين يفترض أن الاحتلال أتى ليخلص المسلمين والعرب من المقاومة، وليس العكس. فهو لم يحدد بما تنشغل به قوى المقاومة أكانت حماس أو حزب الله. هذه المقاومات أعدت لتخليص مجتمعاتنا من الإحتلالات التي أصبحت سيلاً لا ينضب. ولا بد أن تكون المضامين الفعلية لمقاوماتنا التوحد وتجسيد العدو المشترك بدون موارية ولا ذهاب إلى

حروب جانبية تشعلها في معظم الأحيان قوى الاحتلال وتفعلها تدريجياً حسب ظروفها الميدانية والسياسية. مقاوماتنا كانت وما زالت تتجنب أي احتكاكات أو حروب داخلية على الرغم مما يفرض عليها في بعض الأحيان، ولكي تحمي ظهرها، من التلويح المرغم بما تمتلكه من عناصر القوة. وهل إذا وجدت المقاومة عميلا أو شبكة من العملاء تعمل لصالح العدو أن تلوذ بالصمت لأن هذا العميل ينتمي إلى مذهب أو طائفة معينة خوفا من الحروب الداخلية؟ وهلا دخلت مقاوماتنا في حروب داخلية محدودة لم تكن ترتبط بتسوية سياسية استسلامية يريد الاحتلال فرضها تذهب بحقوق الأمة وخاصة ما يرتبط بفلسطين المغتصبة؟

وفي مقالة في مجلة "آخر ساعة" المصرية بعنوان: "من يشعل الفتنة بين السنة والشيعة" بقلم إبراهيم قاعود، يقول السيد قاعود: "منذ الإطاحة بعهد شاه إيران الراحل محمد رضا بهلوي وعودة أية الله الخميني (يكتبها الخوميني)، من منفاه في باريس لم تتوقف محاولات النظام الجديد عن السعي لتصدير الثورة ونشر المذهب الشيعي" ... . " من هنا انطلقت التحذيرات التي تدق أجراس الخطر من المد الشيعي المتصاعد في المنطقة، فكان تحذير العاهل الأردني الملك عبد الله الثاني من الهلال الشيعي عام 2005، ثم تحذير الرئيس مبارك من أن مشكلة الأقليات الشيعية في الخليج هو في ولائها لغير بلدانها، وتصريحات وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل من خطورة المد الشيعي ودور إيران في العراق. التحذيرات تبعها حملات هجوم إعلامية وسياسية من جانب طهران والمرجعيات الشيعية الموالية لها". إمعاناً في اللغة الفتنوية، في المقالة صورة للرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد كتب تحتها "أطماع إيرانية في نشر المذهب الشيعي"، وفي صورة أخرى لتظاهرة شيعية كتب تحتها "طقوس شيعية تسيء للإسلام وصورته السمحة". إضافة إلى ثلاث صور الأولى للشيخ يوسف القرضاوي لم يكتب تحتها شيء، وإنما ذكَر الكاتب في المعركة التي دارت بين الشيخ القرضاوي ووكالة الأنباء الإيرانية "مهر". يذكر الكاتب أن الوكالة اتهمت الشيخ القرضاوي: "بالتحدث بلسان زعماء الماسونية العالمية" وكان رد القرضاوي، كما يورد الكاتب، أنه اتهم "إيران بإنفاق مليارات الدولارات لمحاولة غزو المجتمع السني... وأن الشيعة مبتدعون في الدين وليسو كفرة". أما الصورة الثانية لسماحة السيد حسن نصر الله الذي اتهمه الكاتب قاعود بأنه تلقى أمراً عام 2006 لشن حرب على إسرائيل (لجعل لبنان ساحة لجلب الأنظار من خلال الاشتباك مع العدو الصهيوني وتوفير كافة إمكانات

الحرب(!)) أما الصورة الثالثة فهي للسيد مقتدى الصدر وتحت الاسم "جيش المهدي" (لا يذكر الكاتب كلمة السيد بل يكتب حسن نصر الله ومقتدى الصدر بينما يكتب الشيخ يوسف القرضاوي). بالنسبة للسيد مقتدى الصدر يقول الكاتب: "قيام التيار الصدري بشن عمليات ضد الاحتلال في العراق لسحب الدعم الشعبي من المقاومة أو ما سمته بالتيار الإرهابي الصدامي الوهابي، وكسب مناهضي الحرب إضافة لدور حزب الله لإضعاف منتقدي السياسة الإيرانية". (آخر ساعة المصرية، 1تشرين الأول 2008) هذا المقال غير المنطقي يحض صراحة على الفتنة في بلد عرف شعبه بالتسامح والتعلق بإسلامه ولم يعرف المذهبية يوماً، وأحب المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني والاحتلال الأمريكي للعراق وأفغانستان. لسنا بحاجة للدلالة على دخول الإعلام، وخاصة في مصر الإسلام، على خط المواجهة بإدارة أمريكية واضحة.

إن التعمق في التوجه نحو ثقافة "الأقليات" هو ما دفع البعض نحو الإنفلات من ممارسة مهنة الإعلام أو الخطابة من على المنابر أو بث سموم الفرقة من خلال اختراع آراء وتصورات عن حوادث تثير القلاقل، ولا يكون لها أصل في العمل السياسي أو الثقافي. إنه ومنذ إصدار مجلس الأمن لقرار 1559 الخاص بلبنان، بدأ العمل الأمريكي والغربي والإسرائيلي على إشاعة أجواء الانقسام بين المقاومة والجماهير المؤيدة لها في لبنان وفلسطين وأرجاء العالم الإسلامي. فكان من تحريض على حزب الله متبوعة بكلمة الشيعي أو الجماعة الإسلامية السنية أو أي منطقة كانت تذكر بحسب انتمائها الطائفي والمذهبي بلغة غير مألوفة أو مستساغة. ومن اللافت أن تجد معظم نشرات الأخبار لمحطات الحرة وCNN وBBC والعربية، إضافة إلى بعض القنوات اللبنانية المحلية والمصرية، ما أدى إلى حالة احتقان لم يشهد الشارع الإسلامي لها مثيل. وقد إستلب بعض الساسة من اللبنانيين والعرب، الذين تناغموا في طروحاتهم السياسية للمنطقة مع التوجهات الأمريكية الجديدة، التي اعترف بها بعضهم لاحقاً.

أتى زلزال اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري فرصة لهؤلاء وبدأوا يروجون لإشاعات تصب الزيت على نار الفتنة المذهبية. فمن تصريح إلى أن السيارة التي استعملت في عملية التفجير أتت من الضاحية إلى المداهمات لشقق موجودة على أطراف هذه المنطقة، إلى التلميح لبعض الشخصيات الشيعية بالمشاركة في هذا العمل. وكان الهدف واضح هو سلاح المقاومة. ولما فشلت هذه المخططات والدعايات التي تناولتها، تحديداً وسائل إعلام عربية وأجنبية. نذكر مثلاً

جريدة "السياسة الكويتية" التي كان لها باع طويل في فبركة الأخبار والأساطير (جاد الله وغريافي) ومجلة "دير شبيغل" الألمانية وفضائيات عربية وأجنبية.

لم تكن الولايات المتحدة والكيان الصهيوني الغاصب بعيدتان عن كل ما يجري، فكانتا تخططان وتراقبان وتؤشران وتؤججان نار الفتنة. فقد كانت الخطة (أ) هي تطويق حركات المقاومة في لبنان وفلسطين بأشكال من الفتن الداخلية تجعل هذه المقاومات في حالة إرباك وانحسار وإدخالها في حروب داخلية لإنهاكها، وفض العلاقة مع المؤيدين والأنصار وخاصة من الفلسطينيين واللبنانيين. ومن ثم الانقضاض على لبنان أو غزة لاحتلالهما وفرض الشروط المعدة مسبقاً. ما يسهل على الولايات المتحدة القيام بعروض استسلام لقيادات هذه المقاومة بالحفاظ على أرواح قياداتها وعناصرها، شرط تسليم السلاح. هذا السلاح الذي جاهر البعض بأنه بعد التحرير في أيار عام ألفين، أصبح "سلاح ميليشياوي" و"لا يخدم مصلحة لبنان"، وهذا ما قيل، وما زال يقال للأسف، ويسرب إلى الإعلام عبر شخصيات في لبنان وفلسطين وبلدان عربية كبرى.

الدور الصهيوني

في هذه الأثناء كانت وسائل الإعلام الإسرائيلية تقوم بدورها في التحريض وإيجاد الشرخ وتعميق الهوة بين اللبنانيين، وكلما سقطت ذريعة أو كذبة وكشف بهتانها وزورها، تعود الماكينات الإعلامية في واشنطن وتل أبيب وصحف عربية وأجنبية ورجال سياسة ودين في لبنان وخارجه، بفبركة اعتداءات وأقوال تثير القلاقل وتعيد أجواء الفتنة إلى الشارع، خاصة في فترة الاعتصامات والتظاهرات وما رافقها من اعتداءات وضحايا وتهديدات وتحريض جارف. لقد أخذوا النفس البشرية، في لبنان خاصة، إلى غير مكانها الحقيقي، وعملوا على تشويهها بانفعالات غرائزية ضيقة ومقيتة أبعدتها عن قضاياها المصيرية وأعدائها الحقيقيين. وقد أرادوا من ذلك وأد كل أمل في نفوس المواطنين بالإيمان بوطن، عدا عن إعادة تشكيل الأولويات من حلفاء طبيعيين وأعداء ظاهرين. كل هذه الأجواء والإنفعالات والتصرفات الشوارعية الهوجاء كانت تبعث الأسى والقلق العميق على مصير الوطن والمقاومة. لقد جمعت الإدارة الأميركية كل

أدوات الشر من كتّاب وعلماء نفس إجتماعي وسياسي ومراكز دراسات ومن مختصين في التاريخ الإسلامي وعلى رأسهم الحاقد برنارد لويس ودانيال بايبس وصولا إلى رامسفيلد وكونداليزا رايس (أركان المحافظين الجدد) مع ما توفر من كتاب عرب وأوروبيين من أجل الإتيان بشرق أوسط جديد.

في هذه الأجواء "الملحمية،" شن الكيان الصهيوني عدوانه من أجل صيد نتائج ما اصطلح على تسميته ب(ثورة الأرز) في لبنان، متخذا ذريعة له عملية المقاومة التي أتت ردا على اعتداءاته المستمرة على الأرض والسماء والمياه والإنسان وتركه مئات آلاف ألالغام في الأرض اللبنانية التي كانت تحصد الضحايا في حقولهم. بعد الزرع يأتي الحصاد(!) لم يدرك البعض في لبنان والبلاد العربية، أن العدو الصهيوني والولايات المتحدة كانتا تعدان لهذه الحرب منذ سنة ألفين، أي بعد الإندحار الصهيوني مباشرة.

الواضح الآن أن السفارة الأميركية في بيروت بقيادة جفري فيلتمان، والتي كانت تشهد اجتماعات مطولة بين أميركيين ولبنانيين وعرب، كانت تدغدغ البعض بالقول اعملوا ما تقدرون والباقي سيأتي: من ضربة لإيران وإسقاط للنظام في سوريا وحرب إسرائيلية على لبنان. التقط البعض من لبنانيين وعرب أنفاسه لرؤية نتائج العدوان، وإن كانوا يحلمون بإنهاء وردة العرب والمسلمين في صحرائهم التي ما أرادوها أن تنبت ولو شوكة تؤذي الصهاينة. وقالوا لا نؤيد مغامرات(!)، وفشلت "إسرائيل" في جلب خارطة الشرق الأوسط الجديد الذي أصرت كونداليزا رايس أن يولد على يديها عبر مخاضات اصطناعية أتت بها للعدو الصهيوني عبر الجسر الجوي من الأسلحة الفتاكة، مرورا بلندن. نيتهم كانت أن يقتلوا الحلم العربي. لكنه أزهر. ومات جنين كوندي اللاشرعي في بطن أمه الصهيونية. على الرغم من القبلات المسمومة التي كانت تنضح فتنة لتأليب المشاعر الجياشة التي أصابتها المجازر الصهيونية في الصميم من مجزرة مروحين إلى النبطية والدوير ... إلى مجزرة قانا الثانية المروعة. كل هذا ولم ينبض عرق في جسد هؤلاء الموات الذين يريدون الفتنة للحصول على دويلات مذهبية، ولو على أنقاض المستضعفين من أبناء الوطن العربي. فـ "الفوضى الخلاقة" الأميركية المدمرة والمجزئة–حكي عن سايكس – بيكو جديد يقوم على تقسيم للمنطقة على أساس مذهبي– لم تؤت ثمارها بفضل العقلاء من السنة

والشيعة والمسيحيين الذين استطاعوا بوعيهم وتجربتهم أن يعاينوا الشرانيّة الأميركو – صهيونية ومعها بعض الأنظمة والقوى السياسية التي ربطت وجودها السياسي بهذه الشرانيّة المتمادية.

ولا بد من الإشارة إلى الإعلام الصهيوني في الفترة الأولى للعدوان–وخلاله– من أن قوات الجيش الصهيوني أسرت وقتلت المئات من مقاتلي المقاومة، وتصريح دان حالوتس بعد يومين بأنه "انتصر" في الحرب وقضى طيرانه على البنية التحتية للمقاومة. واللافت أكثر هو أسلوب الدعاية بالمنشورات التي كانت ترمي بها الطائرات الصهيونية ل"مناشدة" السكان اللبنانيين في الجنوب وبيروت بأن لا يساعدوا مقاتلي حزب الله كي لا ينالهم عقاب الصهاينة. إضافة إلى رسوم كاريكاتورية تتحدث عن "هرب" قيادات في المقاومة، وبالتالي يجب على السكان أن يحافظوا على أنفسهم. كما التصريحات الصهيونية التي تتحدث عن مساعدتهم للدولة اللبنانية في استعادة سلطتها على "كامل الأرض اللبنانية". ولا بد للمرء من التساؤل: هل كان سيتوقف الأمريكي والصهيوني عن إذكاء روح الفتنة فيما لو استطاعت، لا سمح الله، أن تفرض الشروط التي تريد من خلال عدوان تموز 2006؟ وهل توقفت التهديدات الصهيونية والأميركية بعد القرار 1701؟ إن من يطمئن للنوايا الصهيونية والأميركية يصيبه كما أصاب مجير أم عامر!

إصرار أمريكي – غربي–صهيوني على التحريض والفتنة

يذكر أن حاييم وايزمان الجد ،والذي كان له دور مشؤوم في تأسيس الكيان الصهيوني الغاصب، كان متشائما جدا من مستقبل هذا الكيان، إلا أنه كان يردد أنه يجب السعي لتقسيم المنطقة المحيطة بهذا الكيان حتى تصبح "إسرائيل" أكبر الكيانات الموجودة وأقواها في الإقليم. يتحدث وايزمان عن كيانات طائفية أقلوية، كل واحد منها يطلب الحماية والرعاية وعناصر القوة من الكيان الصهيوني الغاصب. هذا المخطط السياسي الجهنمي والذي يستند في مقوماته إلى إحداث إنقسامات تقوم على العرق (القوميات)، أو اللغة أو المذهب أو حتى داخل المذهب. جعل الفتن تقع في مصر بين الأقباط والمسلمين، في لبنان بين المسيحيين والمسلمين، بين المسلمين سنة وشيعة، وفي العراق بين الشيعة والسنة والأكراد، بين إيران الإسلامية والعرب، بين الشيعة والشيعة في العراق وإيران، بين العرب والأتراك وبين الأكراد والأتراك. وهكذا كما نرى في السودان وربما غدا بين البربر والعرب في المغرب العربي.... وقضايا متكثرة لها علاقة بالثقافات المحلية والعائلات والقبائل والمناطق والأقاليم التي يظللها الإسلام الواحد. كل ذلك معرض كي

تأتي عليه نار الفتن التي تذكيها القوى الكبرى التي لها مصلحة بتذويب ثقافة الجماعات الكبرى ليحل محلها ثقافة ضيقة يمكن أن تبتلعها وتحتويها ثقافات أخرى مهيمنة، إلا أنها فارغة من القيم الإنسانية الدينية الجامعة. وكنموذج يتردد بين الفينة والأخرى ما نقرأه في وسائل الإعلام عن الحوادث التي تقع في مصر. فقد ذكرت بعض وسائل الإعلام عن محاولات من عقلاء مصريين من الأقباط والمسلمين اجتمعوا وأصدروا بياناً وزع على وسائل الإعلام كي لا يثيروا الحساسيات الطائفية من خلال نشر بعض المقالات أو محطات التلفزة التي لا تتورع عن استضافة بعض الذين لا يردعهم ضميرهم، إذا أحسنا الظن، عن النفخ ببوق الفتنة. فقد ذكرت صحيفة اللواء اللبنانية: "مثقفون مسلمون وأقباط يسعون لوأد فتنة تذكيها كتابات ومقابلات تلفزيونية،" نتيجة للبلبلة التي أحدثتها مقابلة تلفزيونية لأحد الأقباط هاجم فيها بعض المسلمين، وكتابة مقال من أحد المثقفين المسلمين في جريدة "أخبار اليوم" المصرية هاجم فيه الأقباط. (اللواء اللبنانية، 2004/6/8) من الملاحظ أن أوركسترا محلية منسجمة مع مخططات خارجية تطل برأسها عندما تتعرض سياسات هذه القوى لإخفاقات، أو ترى أن الوقت أصبح ناضجا لبث سمومها بين أبناء الأوطان كي يبقوا على حاجتهم لمساعدتها. إن مؤامرات قوى الاستكبار لا تنتهي، وإن تعطلت في لحظة تاريخية، نتيجة لوجود عناصر قوة في البلدان التي ذاقت مرارات الاستعمار والفرقة في صفوف الأمة.

على الرغم من الانتصار التاريخي للمقاومة الإسلامية على جيش الكيان الصهيوني المعادي وضعضعة معنوياته العسكرية والنفس – اجتماعية لجيش ومستعمري هذا الكيان، إلا أن قوى الإستكبار العالمي وعلى رأسه الولايات المتحدة، أصرت على متابعة المعركة في السياسة ولم ترد أن تخسر التعبئة المذهبية المؤدية للفتنة، التي بدأت تحضيرها منذ سنة 2004 أو قبل ذلك مع إصدار قرار مجلس الأمن رقم 1559. وفي ذروة الحزن والاستنكار العالميين للدمار والمجازر التي ارتكبها العدو الصهيوني في مناطق تواجد المقاومة، وفي غيرها من الأماكن، كان البعض من الذين أرادوا أن تفرض شروطا قاسية على المقاومة، وبتواصل مع بعض الأنظمة في المنطقة وطبعا مع السفير الصهيو – أميريكي جيفري فيلتمان في بيروت، يهيأون الأوضاع الداخلية لأزمة جديدة مع قوى المقاومة باسم المذهبية والدفاع عن المذهب والعقيدة. ربما لم يدر في خلد هؤلاء أن الكيان الغاصب أراد أن ينتقم لصورته المهشمة في حرب أرادها إلغاء للمقاومة، في

إشعال ما تبقى من نفس إسلامي وإنساني ويتابع مخططه فيما سمي "نزع سلاح" المقاومة، ولكن هذه المرة تحت مسمى أنه "استعمل في الداخل". وبحجة أنه "خرّب لبنان وانه سلاح لطائفة تستقوي به على بقية الطوائف". لقد شارك في تسويق هذه الدعاية جرائد ومجلات محلية ومحطات تلفزة محلية وخارجية، وخاصة عربية.

في أوائل شهر أيار من عام 2008 اتخذت الحكومة اللبنانية قرارات من ضمنها قراران يتعلقان بالمقاومة الإسلامية وخاصة سلاح الإشارة، أو ما اصطلح على تسميته شبكة اتصالات حزب الله. رد حزب الله عبر مؤتمر صحفي عقده سماحة الأمين العام السيد حسن نصر الله في اليوم التالي. قال السيد نصر الله أن القرار المتعلق بنزع سلاح الإشارة من المقاومة يعرض المقاومة للإنكشاف أمام العدو الصهيوني الذي فشل في اختراق المقاومة أو التنصت عليها، وبالتالي يجب التراجع عن هذا القرار. أصرت هذه الحكومة، التي أسماها البعض "بتراء"، أي غير شرعية ولا ميثاقية وبالتالي فإن قراراتها غير شرعية وباطلة، على قراراتها واعتبرتها ملزمة وأرسلت إلى قيادة الجيش قرارا بالتنفيذ(!). صادف في هذه الأيام دعوة الإتحاد العمالي العام إلى تظاهرة عمالية عامة للمطالبة بزيادة الرواتب نتيجة للغلاء الفاحش. وقد وصلت تحذيرات إلى الإتحاد وإلى قيادات لبنانية من أنه إذا سارت التظاهرة ووصلت إلى مفترق البربير ستتعرض إلى إطلاق نار وقنابل. وفي اليوم التالي، أي في السابع من أيار تعرض بعض المتظاهرين لإطلاق نار ما أدى إلى تأجيج الأوضاع ونزول القوى إلى الشارع. إستغلت وسائل الإعلام المعادية للمقاومة وبدأت بشحن الأجواء المذهبية بعبارات تحريضية واضحة. وقد بثت قناة "العربية" برنامجاً حواريا–عدا عن بثها التحريضي المباشر– بعنوان "تداعيات انقلاب حزب الله" ودونت في أدنى الشاشة "تداعيات انقلاب حزب الله على السنَة" و"تداعيات انقلاب حزب الله على المسيحيين" عازياً – صاحب تقرير العربية – التظاهرة التي حصلت في 5 شباط 2006 إلى حزب الله (؟!). (جريدة السفير اللبنانية، 2008/5/23) وقد تناغمت هذه الوسيلة الإعلامية مع كتابات غربية حول الحدث.

ولكل من يستطيع العودة بالذاكرة، أو يراجع صحف تلك الفترة، يتبين الكم الهائل من التحريض الإعلامي وبث الشائعات المذهبية حتى عبر الهواتف الخلوية – رسائل SMS– التي كانت فاحشة في هجوماتها إلى حد مقذع.

ويكتمل المشهد التآمري من خلال عينات إعلامية في الصحف والتلفزة الغربية. فقد كتب سايمون تيسدال في الغارديان البريطانية تحت عنوان إيران ضد السعودية في معركة بيروت: "الكل متفق على أن التظاهرات التي نظمها حزب الله هذا الأسبوع هي تظاهرات شيعية إلى حد كبير. وعلى الرغم من سلميتها الواسعة وديمقراطيتها حتى الآن لا يجب السماح لهذه التظاهرات بالإطاحة بالحكومة لأن مواقف المتظاهرين تتعارض بشكل كبير مع النظرة الغربية المستحسنة لتظاهرات الشارع المناهضة لسوريا في السنة الماضية (أي تظاهرات 14 آذار 2005) والتي قام بها مسلمون سنة ودروز ومسيحيون، والتي سميت بثورة الأرز وأطاحت برئيس الوزراء اللبناني عمر كرامي". ويتابع تيسدال مقاله باعتراض واضح على المقاومة وليس بالضرورة على الوضع السياسي أو توازن الجماعات السياسية في النظام اللبناني ولأي طائفة ينتمون. يقول: "إن النجاح السياسي لحزب الله في لبنان قد يتمم بشكل واضح النجاحات العسكرية التي صورتها لنفسها هذه الجماعة في شهر آب 2006". وللتدليل على عمق المؤامرة وأبعادها الإقليمية والدولية يتابع تيسدال: "كإسرائيل، تعتبر الولايات المتحدة وبريطانيا بأن الخسارة للبنان ليس فقط هو مكسب مباشر لسوريا والميليشيا المفضلة لديها (ويعني حزب الله) وإنما لإيران الأمر الأكثر إثارة للقلق. وهذا ما يضع بيروت في السياق الواسع لحرب النفوذ الإقليمي لطهران الواثقة من نفسها بشكل متزايد... كما أن الأنظمة السنيّة في القاهرة وعمان والرياض ليست بأقل توتراً من النفوذ الشرير لإيران الشيعية؛ حيث تم التأكيد على قلق العربية السعودية عند زيارة ديك تشيني مؤخراً إلى الرياض. ومع أن نائب الرئيس يجب أن ينتبه لصحته وهو نادراً ما يسافر إلا أنه قطع هذه المسافة الطويلة إلى الرياض لكي يستمع إلى الهواجس السعودية من أنشطة إيران في العراق وفلسطين ولبنان والخليج". (الغارديان اللندنية، 15 كانون أول 2006) كم يبدو قلق تيسدال والغارديان وديك تشيني على مصلحة السنّة أو الشيعة أكان في العراق أو في لبنان. إنها ألسنة لهب الفتنة التي أرادوا إشعالها دائماً بتحريض من هنا وتآمر من هناك.

وفي السياق نفسه كتب الصهيوني دانيال بايبس المحافظ الجديد والليكودي في صحيفة "نيويورك صن" مقالاً بعنوان "كيفية وضع حد للإرهاب: قد يكون الإسلام المعتدل مفتاح الانتصار في الحرب على الإرهاب". يتحدث دانيال بايبس في هذا المقال عن أهمية دعم القوى المعتدلة في البلدان الإسلامية في مواجهة القوى التي يصفها بالإرهاب مثل "حركة حماس" ويهاجم مقولة

الإسلام هو الحل ويصنف المسلمين بناء لتقسيم بينارد المذكور آنفاً، ويعتبر أن المشكلة مع المسلمين هي في مقولة الجهاد التي رُوج لها من قبل مفكرين ومنظمين مثل (الشيخ الشهيد) حسن البنا، و(العلامة) سيد قطب و(الإمام) روح الله الخميني. الذين بدأوا هجوماً عدوانياً ناجحاً ضد المقاربات التقليدية والعصرية والوسطية للإسلام، من أجل تطوير الرؤية السامة لهؤلاء الطوباويين تبنى أتباعهم وسائل العنف بما فيها الإرهاب. ويتابع دانيال بايبس مبدياً "حرصاً أكيداً على الإسلام" "إنه بإمكان المسلمين القيام بصياغة ونشر إسلام حديث معتدل وديمقراطي وحسن الجوار وإنساني ويحترم المرأة. وبإمكان غير المسلمين المساعدة من خلال دعم المسلمين المعتدلين في مواجهة الإسلاميين". (نيويورك صن، 5 كانون الأول 2006) يبدو أن المسلمين يضيعون فرصة السلام مع الفتنة بعدم قبولهم للاحتلال الإسرائيلي والأمريكي للمنطقة(!).

وفي إشارات وتسريب إعلامي من أجل زيادة الشرخ بين المسلمين السنة والشيعة كتبت صحيفة هآرتس الصهيونية مقالاً بعنوان "التحالف الإسرائيلي السعودي". أوردت المقالة خبراً عن أن الأمير بندر بن سلطان بن عبد العزيز كان صلة الوصل غير الرسمية بين القدس والرياض، الذي التقى رئيس الموساد الإسرائيلي مائير داغان وذلك خلال الحرب الإسرائيلية على لبنان. يقول المقال أنه في الشهر الماضي (أي تشرين أول 2006) نظم داغان لقاء بين بندر ورئيس داغان الجديد(؟) في الأردن. قليل من التفاصيل سربت إلى صحيفة يديعوت أحرونوت بعد أسبوعين. المقالة ركزت على أن إسرائيل والمملكة العربية السعودية يجمعهما التهديد الإيراني وتضيف الصحيفة أن إيهود أولمرت رئيس وزراء العدو الصهيوني السابق قد امتدح علناً السعودية لعدم مساندتها لحزب الله خلال الحرب على لبنان.

بدورها صحيفة يديعوت أحرونوت فصلت الخبر في اليوم التالي (8 تشرين أول 2006) بعنوان "إشارات لتحالف سعودي–إسرائيلي لمواجهة إيران" في مقالة مطولة عن حركة اللقاءات السعودية الإسرائيلية التي طاولت وزير الخارجية السعودي سعود الفيصل وتركي الفيصل اللذين نصحا الفلسطينيين بإتباع مقاومة غاندي ووقف العمل المسلح ضد إسرائيل. إضافة إلى لقاءات سرية جمعت رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت مع مسؤولين سعوديين من العائلة المالكة في أواسط أيلول 2006، أي بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان مباشرة. وقد نفى رسميون سعوديون وإسرائيليون هذه التقارير. إلا أن عبد الباري عطوان في صحيفة "القدس العربي" فصّل هذه

اللقاءات المستمرة بين الإسرائيليين والسعوديين. وذكر عن محطة الـ BBC البريطانية أنه في أواخر آب 2006 صرح مأمون فندي المقرب من الملك السعودي بالقول أن لقاءً في واشنطن خلال حرب لبنان، قد حصل بين بوش ورايس وسعود الفيصل وبندر بن سلطان. و قال فندي أن المحادثات تناولت الحرب في لبنان، وأن السعوديين أخبروا بوش أن إسرائيل قدمت خدمة تاريخية لبلادهم وخاصة عندما هزمت عبد الناصر في عام 1967. وأن السعودية تنوي سحب توقيعها على معاهدة الحد من انتشار الأسلحة النووية والبدء ببناء مفاعل نووي لمواجهة إيران.

تأتي هذه التسريبات الإعلامية الصهيو – أمريكية في الوقت الذي كان قادة صهاينة يدعون الدول العربية إلى تشكيل حلف لمواجهة إيران الشيعية. فقد ورد على لسان داني أيالون نائب وزير الخارجية الصهيوني أن "ثمة ما يجمع إسرائيل والدول العربية المجاورة، وهي دول سنية ضد إيران الشيعية التي تسعى إلى السيطرة على المنطقة بأسرها". (عبد الرؤوف الريدي، جريدة الشرق الأوسط، إسرائيل والصهيونية بين السنة والشيعة، 15 كانون أول 2009)

وقد أتت أحداث اليمن وأزماتها المزمنة لتبعث نار الفتنة من جديد. حيث أصبح كل حدث في المنطقة يتم تناوله من حيث بعده المذهبي. فقد كتب عبد الرحمن الراشد، رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط تحت عنوان "استنساخ حزب الله في اليمن": "الجماعة الحوثية المتمردة رعتها إيران من خلال زعيمها حسين بدر الدين الحوثي، الذي بدأ حركته ضد النظام قبل خمس سنوات مدعياً أن حكم اليمن يجب أن يتم من خلال الإمامة الدينية، ليمنح لنفسه بذلك "شرعية الحكم". والحركة المتطرفة تحاول نشر فكرها في وسط الغالبية الزيدية المعروفة باعتدالها الفكري. الحوثي تبنى فكر "الشيعة المتطرفة" التي تكفر السنّة وتوجب قتالهم. كما هو الحال عليه عند خصومها من السلفية السياسية المتطرفة التي أسس عليها فكر "القاعدة" الإرهابي ويحل قتال الشيعة". (الشرق الأوسط 7 تشرين الثاني 2009) ولم يتنبه عبد الرحمن الراشد في مقاله إلى أنه ذكر أن إيران تدعم حركة حماس بشدة من أجل مقاتلة العدو الصهيوني والدفاع عن فلسطين. وأن الشيعة لا يكفرون السنة ولا يوجبون قتالهم. وأن القاعدة أيضاً تقاتل النظام اليمني المدعوم أمريكياً علناً. وهو يعلم أن هذه الكتابات إنما تصب في خانة الفتنة التي تخدم العدو الصهيوني والغزو الأمريكي في المنطقة. وتزيد في ضعف الأمة حيث تتجرأ وسائل الإعلام الغربية من نشر صور

كاريكاتورية لنبي الأمة جمعاء (ص) دون أن تأخذ الحكومات العربية أدنى إجراء أو موقفاً إعلامياً حتى.

ربما تكون الأخطر من ضمن التصريحات المؤججة للفتنة تلك التي حاولت محطة "العربية" تكراره على لسان الشيخ يوسف القرضاوي الذي رفض أن يكفر الشيعة واعتبر أنه "ضد اختراق الشيعة لبلاد السنة". فأخذت هذه الوسيلة الإعلامية تضرب على هذا الوتر خاصة وأن الشيخ القرضاوي من المعروفين بتأييدهم للمقاومة وأهميتها في معركة الأمة للتحرر من الاستعمار والتبعية. (راجع موقع العربية www.alarabiya.net بعنوان القرضاوي يحذر من إختراق شيعي لمصر عبر بوابة المتصوفة)

إلا أن ذروة الخطب المثيرة للفتنة هو ما صدر عن الشيخ السعودي محمد العريفي حيث قال في خطبته: "واليوم أيها الموحدون لا يزال الشيعة الضلال يكيدون للتوحيد والسنّة ويحاولون أن ينشروا هذا المذهب الفاسد بين الناس..." وقد هاجم في خطبته المرجع الشيعي السيد السيستاني ما استدعى رسالة من المسؤولين العراقيين إلى الملك السعودي يطلبون منه التدخل لوضع حد لهذه الإساءات المتعمدة والتي يستفيد منها أعداء المسلمين والذين يتربصون بهم الدوائر.

التحريض والفتنة: بوابة أميركا لاستعمار المنطقة

لعل بعض العقول السطحية في المجتمعات العربية تظن أو يخيل لها أنها عندما تهاجم قوى المقاومة، شيعية كانت أو سنية، إنما تقدم خدمة لنظامها السياسي فتنال أجراً دون أن تعلم أنها تقوم بجمع الحطب لإحراق مجتمعاتها. وهذا ما يرغب به ويقوم بدفعه الأمريكي في كل البلدان العربية، وهو يريد أن ينجز الفتنة في الأماكن التي غزاها أو التي له فيها نفوذ. لمصلحة من تترك حماس والمقاومة الفلسطينية في غزة لمصيرها أو لحصارها؟ ولمصلحة من تهاجم المقاومة في لبنان عبر وسائل إعلام عربية؟ إذا كان يقدم العون إلى الإخوة الفلسطينيين في غزة. فلا نرى وسيلة إعلام عربية، إلا ما ندر، تتحدث عن حزب الله الشيعي وليس عن مقاومته للعدو الصهيوني. تكتب صحيفة "السياسة" الكويتية بعنوان عريض: "حزب الله يفبرك واجهات إعلامية برائحة القاعدة لتغطية عملياته" (السياسة، 29 تشرين أول 2009)، أو يتحدث آخرون عن

التطهير المذهبي في العراق (مايكل توتين، النهار اللبنانية، 27 كانون ثاني 2010). يكتب توتين بعنوان: "حيث يتقدم العراق على لبنان" بمقارنة تركز على الجانب المذهبي والطائفي بالقول: "كيف يمكن إذاً المقارنة بين بغداد وبيروت؟ أحد الأسباب هو تنوع بغداد أو بعبارة أخرى طائفيتها. نحو 60 في المئة من العراقيين هم عرب شيعة في حين أم حوالي 20 في المئة هم عرب سنة و20 في المئة هم أكراد سنة. والسياسة في العراق مذهبية أيضاً. يدعم الأشخاص عملياً أحزاباً أو مليشيات تمثل حصراً المذهب الذي ينتمون إليه. أحدث التطهير المذهبي تحولاً جذرياً في التركيبة الديمغرافية في بغداد في عامي 2005–2006؛ معظم الأحياء في العاصمة هي الآن إما سنية وإما شيعية". (مصدر سابق نفسه) هذه العبارات التي تفوح منها رائحة التحريض المذهبي هي في الواقع نتاج الاحتلال وصناعته. الاحتلال الأمريكي هو الذي يحكم العراق وهو المسؤول الأول والأخير عن تشريد وقتل وطرد وسجن العراقيين ونهب ثروات العراق. إن التاريخ يشهد أن الشعب العراقي، سنة وشيعة وأكراد كانوا يعيشون لمئات السنين بسلام في ظل علاقات أخوية إسلامية بمعزل عن الانتماء العرقي الذي يريد بعض الكتبة أن ينفخوا فيه نار الإقتتال والتمييز. وهذا ما تحدث عنه هنري كيسنجر، وزير خارجية أمريكا في عهد كارتر، سنة 2003، حيث رأى أن العراق سيصبح ثلاث دويلات: شيعية وسنية وكردية. وقد أثار كيسنجر هذا الموضوع بالأمس القريب حيث كتب في جريدة "واشنطن بوسط" الأمريكية بعنوان "على سياسة أوباما إزاء العراق الاهتمام بما بعد الانسحاب". يقول كيسنجر في مقالته: "لقد كانت بلاد الرافدين هي النقطة الإستراتيجية المحورية للمنطقة طوال الألفية الماضية، وكانت مواردها تؤثر على دول بعيدة عنها للغاية. بالإضافة إلى أن الخط الفاصل بين عالمي الشيعة والسنة يمر في مركزها، بل عبر عاصمتها. وتقع المقاطعات العراقية الكردية في أجواء من التوتر بين تركيا وإيران وخصومها الطبيعيين في العراق. وبالتالي ليس من مصلحة الأمريكيين أن يتركوا المنطقة في حالة فراغ سياسي... (إذ) ليس من الممكن فصل العراق عن الصراع المتعلق بالجهاد الثوري، حيث أن تداعيات ما يحدث في العراق سوف تؤثر على التوازن النفسي في الحرب ضد الإسلام الراديكالي." (ترجمة جريدة الشرق الأوسط، 4 شباط 2010) في هذه المقالة يحذر كيسنجر من سيطرة الشيعة الراديكالية على الحكم في العراق لأن ذلك سيكون له تأثيراً كبيراً على موازين القوى في المنطقة، وخاصة لناحية السعودية ومنطقة الخليج. ويذكر كيسنجر حزب الله وأنه دولة شيعية داخل الدولة. كيسنجر هذا السياسي المخضرم يريد من الرئيس أوباما أن يعود

لمقولة الشرق الأوسط الجديد من البوابة العراقية. ويدع الطوائف والمذاهب والأعراق تقاتل بعضها حتى تضعف جميعاً وتستقبل الأمريكي من جديد وتجبره على البقاء بدل الانسحاب من أجل إقامة التوازن الإستراتيجي مع إيران! من يصدق حرص كيسنجر على هذه الفئة الإسلامية أو تلك سوى الذين لا يمتلكون أي حس سياسي بديهي أو ديني حقيقي أو إنساني سليم. إن مصطلحات كيسنجر التقسيمية حول إسلام ثوري جهادي رديكالي أو معتدل إنما لها نفس الدلالات التي قادت بوش إلى حربه على المنطقة.

إن آخر الافتراءات على قوى المقاومة هو ما أبلغ زوراً وبهتاناً في وصفه الإدعاء المصري على خلية "حزب الله" باتهامها بأنها تعمل لمصلحة إيران من أجل تهديد الأمن المصري ووصف هؤلاء المقاومين بـ "الخونة والمرتزقة". ومع أن كافة الاعترافات التي أدلى بها المصريون والفلسطينيون واللبنانيون تتضمن الاعتراف الصريح والعلني بأن هذه الخلية كانت تعمل من أجل مساعدة قوى المقاومة الفلسطينية في غزة، إلا أن الإدعاء المصري أصر على القول أن هذه الخلية تعمل "أداة منفذة للأغراض الدنيئة لتلك الدولة" ويقصد بها إيران. وأنهم أرادوا، أي أعضاء الخلية، "زعزعة أمن واستقرار مصر والإضرار باقتصادها القومي... وأنهم أرادوا أن يطعنوها طعنة تصيبها في الصميم، لولا عناية الله وتمسك شعبها بقيمه ما أدى إلى إحباط مخططاتهم العدوانية". (الحياة، 27 كانون الثاني 2010) وطالب هذا الإدعاء لأفراد الخلية لمعاقبتهم بالإعدام. ليتخيل القارئ أو المستمع هذه البلاغة المحاماتية التي ران على قلبها فظنت الصديق عدواً ولم تدرك معنى الأخوة ولم تعطها حقها عندما وقعت على انفصالها في إتفاقية "كامب دايفيد".

لم يكف ممثل النيابة المصرية هذا الهجوم البليغ بل أراد محام آخر أن يسكت قناة المقاومة "المنار" وذلك بالطلب من نايل سات وقف بثها من على قمرها الصناعي. حجته أن القناة تهدد استقرار مصر. هذا المحامي والذي يدعى سمير صبري جاء في دعوته أن قناة المنار تبث أخباراً ملفقة عن مصر وتعمل ضد مصالحها وزعزعة استقرارها. لم تجد المحكمة براهين تؤيد إدعاء صبري. (السفير اللبنانية، 27 كانون ثاني 2010)

خلاصة

إن هذا الكم الغزير والمتلاحق من الأدبيات المثير للغرائز وتعبئة النفوس من أجل تحريض المسلمين والمستضعفين على بعضهم، من خلال ابتداع تناقضات لم تكن يوماً في صلب العقيدة أو الوحي أو اليوم الآخر، وإنما بمعظمها يدور حول شحن مباشر لعقل ربما لم تتضح له معالم الهجمة الأمريكية المتوحشة. ففي بلاد المسلمين والمستضعفين يعشش الفساد والاستبداد وتحكم فئة مرتبطة بمصالح ضيقة باعت نفسها لمن يكيد للأمة سوءاً، وهي إذ ذاك اليد المساعدة للأمريكي على طحن شعوبها بإغراقه بالتفكير أو بالسلوك خارج الإطار الذي يضر بالعدو الحقيقي. وكل ما قامت حركة احتجاجية سموها إرهابية أو تهدد النظام العام والأمن القومي، مزايا لأنظمة سياسية لم تعرفها بعيداً عن إملاءات يطلبها من له مصلحة بإبقاء مؤسساتنا بحالة تخلف، إنما تناصب العداء لشعوبها التي من المفترض أن تكون في خدمتها. ففكرة الدولة الحامية والراعية والخادمة لشعبها أفرغت من مضمونها نهائياً وأضحت عبئاً على موجديها. إن أفكارنا عن بعضنا أصبحت عدواً لنا، طالما أن عدونا يزرعها فينا، فهو يشاركنا عقولنا ويخطط سلوكنا بغض النظر عن المكان والزمان. أكان ذلك في العراق أو في لبنان أو في فلسطين أو في اليمن أو .... لماذا تكون الحلول كافة بيد صانع المشكلة؟ أليس من الأجدر بأهل الحل والعقد في الأمة أن يتوحدوا على القضايا الكبرى التي تواجه الأمة ويندفعوا دفعة رجل واحد في الإعلام والسلوك، في التفكير والحركة، من على المنبر أو في الكتب، في مواجهة جمعية لبؤر الاحتلال والفرقة والفقر التي تعمل في بلداننا عمل المنشار في الخشب فتقطعه أشلاء تسهل على العدو إشعال بعضه بالبعض الآخر وتصنع نيراناً تتدفأ عليها ويزدهر اقتصادها المفلس من مواردنا التي نحتاج إليها. فلماذا لا تتوجه كل طاقاتنا في معركة التحرير والحرية؟ إن علماءنا ومثقفينا ونخبنا، على كافة مستوياتهم، أن يسعوا إلى تشكيل عقولنا بما يحفظ مصالحنا وليس بما يؤلب بعضنا على بعض. إن عقولنا يجب أن لا تكون ملكاً لإعلام يزرع فيها الردى والانتقام من جارنا أو من شريك لنا في الدين أو من إنسان نتشارك معه الاستضعاف والإنسانية والزمن المر. لقد أصبح واضحاً أن من يمثل الأمة ويجمعها على حقها ليس أحد غير قوى المقاومة التي لم تنحرف عن خطابها أو فعلها في مقاومة العدو الحقيقي، ناهب خيرات الأمة وسالبها ثقافتها، العدو الصهيوني وربيبته الإدارات الأمريكية المتعاقبة الحاقدة والناهبة لخيرات الشعوب.